مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم الإنسانية
الإصدار العشرون
المجلد (٦) العدد (٣)
٢٠٢٥ (١-١٣)

ديناميّات الميديولوجيا والتّناص: من الشفويّة إلى الرقميّة في الأغنية الشعبيّة

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

الزازية برقوقي
أستاذة محاضرة بالتعليم العالي، جامعة صفاقس، تونس.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٩ أغسطس ٢٠٢٥م

الملخص

تتناول هذه الدراسة، العلاقة المتداخلة بين الوسائطية، الميديولوجيا، والتناص، وتستكشف كيف تتفاعل النصوص والوسائط في السياقات الثقافية والانتاجات الفنية المعاصرة. النظر في كيفية تأثير التحولات التكنولوجية والوسائط المتعددة على الأغنية الشعبية، بدءًا من الشفوية وصولًا إلى العصر الرقمي. تركز على مفهوم "الميديولوجيا"، الذي يعنى بدراسة وسائل نقل الثقافة والأفكار، وكيفية تأثير هذه الوسائط على الفعل الثقافي والموسيقي. تتطرق أيضًا إلى مفهوم "التناص" الذي طرحته جوليا كريستيفا، مشيرة إلى أن كل نص أو عمل فني يعتمد على نصوص سابقة، مما يخلق تفاعلًا بين النصوص المختلفة. هذا المفهوم ينطبق أيضًا على الموسيقى الشعبية، حيث تتداخل التأثيرات الثقافية والتكنولوجية لخلق تجارب موسيقية جديدة، وهو ما يثير الاشكال ويبعث عن التساؤل التالي:

كيف تطورت ديناميات الميديولوجيا والتناص من العصر الشفوي إلى العصر الرقمي، وكيف يسهم التفاعل بين الوسائط المختلفة في تعزيز الإبداع الموسيقي وابتكار تجارب فنية جديدة؟ وما تأثير هذه التحولات على طرق إنتاج وتوزيع الأغنية الشعبية في السياقات الحديثة؟

الكلمات المفتاحية :الميديولوجيا، التناص، الشفويّة، الرقميّة، الأغنية الشعبيّة، التحوّلات الوسائطية.

Abstract

This study investigates the interrelated dynamics of intermediality, mediology, and intertextuality, focusing on how texts and media interact within cultural contexts and contemporary artistic productions. It examines the impact of technological and multimedia transformations on the popular song, tracing its development from oral traditions to the digital age.

The research emphasizes the concept of mediology, which studies the means through which culture and ideas are transmitted, and how these media influence cultural and musical practices. It also draws on Julia

Kristeva's notion of intertextuality, which holds that every artistic work is shaped by prior texts, creating a network of textual interactions. This framework is applied to popular music, where cultural and technological influences converge to generate new musical experiences.

The central question posed is: How have the dynamics of mediology and intertextuality evolved from orality to digitality, and how does the interaction between different media enhance musical creativity and contribute to the innovation of new artistic forms? What impact do these transformations have on the production and distribution of the popular song in contemporary contexts?

The study is structured around three key components: -

1- A conceptual-theoretical framework analyzing the structural and interactive dimensions of musical media.

2- An exploration of intermedial interaction and musical intertextuality.

3- An applied case study of selected traditional popular songs, highlighting processes of musical renewal through modern media, particularly music videos.

Keywords: Mediology, Intertextuality, Orality, Digitality, Traditional Music, Media Transitions.

*** تتناول الدراسة**

١- عنصر نظري مفاهيمي: اذ ان محاولة استكشاف الأشكال المفاهيمية للوسائط الموسيقية والنظر في العلاقات البنائية والتفاعلية بينها، يمكننا النظر في عدة مفاهيم رئيسية وردت في العنوان: -

٢- التفاعل الوسائطي والتناص الموسيقي

٣- عنصر تطبيقي: دراسة عينة من الاغنية الشعبية التراثية، لتكشّف ملامح التجديد الموسيقي للأغنية الشعبيّة في ظل الوسائط الحديثة من خلال الأغنية المصورة على طريقة الفيديو كليب.

*** مقدمة**

إن النقاش المستمر حول العلاقات المتبادلة بين التخصصات المتداخلة وآليات تفاعلها مع علم الموسيقى قد أدى إلى ظهور مقاربات علمية وفنية جديدة ومتطورة. تتكامل وتترابط في تناول الموضوع الثّقافي والفنّي من جوانب مختلفة، بهدف فهمه واستيعابه بشكل أعمق وأشمل. ومن ضمن هذه المقاربات، المقاربة الميديولوجية.

تعتبر الميديولوجيا (Médiologie) من المباحث الحديثة المهمة التي تتسم بالتعددية والشمولية في الطرح والتوجه، وذلك من منطلقات بحثية تفاعلية فلسفية، ثقافية تكنولوجية... وغيرها. ظهرت الميديولوجيا كمصطلح بحثي جديد لأول مرة سنة ١٩٧٩ مع ريجيس دوبريه Regis Debray في كتابه "السلطة الثقافية في فرنسا" (Debray ,١٩٧٩)، وتعرف أيضا بالمقاربة الوسائطية التي تعنى بنقل الرسائل وتجسيدها ماديا.

بدأت المقاربات العلمية والطروحات الفكرية تتجه نحو تشكيل آليات تتبع ودراسة الفعل الموسيقي في مختلف مراحله وسياقاته باعتماد الوسائط المتعددة كمعطى بحثي مادي وكمقاربة علمية نظرية. باعتبار الميديولوجيا (Médiologie)نظرية علمية مدارها اجمالا، كل ما يتصل بالفعل الثقافي من حيث المفهوم والممارسة. وذلك لارتباطها الوثيق بالتقنية، أي اكتساب المهارة للتعلم، وتلازمها الدائم بالتكنولوجيا، أي الاهتمام بطرق تشغيل الأدوات العلمية وتطويرها.(الزواري لسعد ٢٠٢٤).

احدث عصر العولمة والتكنولوجيا الرقمية تغييرات وتطورات كبيرة في مختلف المجالات الثقافية، بما في ذلك الثقافة الموسيقية، التي عرفت قدرا وافرا من التغييرات المعرفية و الفنية في الانماط والتوجهات الموسيقية.

وبظهور الوسائل والتقنيات والتطبيقات الاتصالية الحديثة. شهدت الاثار الموسيقية العربية تحولات هيكلية، ليس فقط على مستوى الاشكال البنائية التقليدية وانما ايضا في اغراضها التعبيرية ووظائفها الفنية والاجتماعية. ومع تطور الوسائط الموسيقيّة الحديثة، بدءًا من التسجيلات الصوتية والوسائط الإعلامية التقنية وصولاً إلى الإنترنت والبث المباشر...، تغير مشهد الموسيقى الشعبية بشكل لافت، اثر استحداث اليات وبنى تفاعلية جديدة يلتقي فيها التقني بالثقافي، لخلق تجارب فنية وانتاج انماط موسيقية متنوعة ومشا ركتها بشكل اعم، في هذا العصر الرقمي الذي اتسم بالتواصل والتفاعل والتشارك.

تواجه الأغنية الشعبية كأحد الأنماط الفنية التعبيرية، تحديات غير مسبوقة، فرضها هذا التحول المتسا رع في العصر الميديولوجي. لم يقتصر فقط على طرق الإنتاج والتوزيع، بل امتد ليشمل جوهر الأغنية الشعبية نفسها من حيث البناء الشكلي والمحتوى التعبيري والتفاعل مع الجمهور.

ومن هذا المنطلق و تأكيدا على أهمية هذا الموضوع البحثي، اتجهت مراكز اهتمامنا نحو النظر في كيفية تأثير الوسائط الموسيقية الحديثة والتكنولوجيا الرقمية على تجديد الأغنية الشعبية التقليدية، وهو ما يثير الاشكال ويبعث عن التساؤل التالي: –

كيف تطورت ديناميات الميديولوجيا والتناص من العصر الشفوي إلى العصر الرقمي، وكيف يسهم التفاعل بين الوسائط المختلفة في تعزيز الإبداع الموسيقي وابتكار تجارب فنية جديدة؟ وما تأثير هذه التحولات على طرق إنتاج وتوزيع الأغنية الشعبية في السياقات الحديثة؟

لتناول هذا الموضوع ومحاولة البحث في الإشكالات المطروحة، وجب اتباع مسار معين يستند إلى المناهج العلمية لاستكشاف تأثير الوسائط الموسيقية الحديثة على تجديد الأغنية الشعبية، مع التركيز على الفرص التي قد تتيحها هذه الوسائط لتعزيز انتشارها واستدامتها، وتحقيق تفاعل أوسع بين الأجيال المختلفة، بالإضافة إلى التحديات التي تفرضها رهانات تجديدها.

لذلك سنعمل على البحث في كيفية استخدام التقنيات الحديثة كوسائط لتوثيق وحفظ الأغاني الشعبية، وكيف يمكن أن تسهم هذه الوسائط في انتشار الأغنية الشعبية عالميًا، فضلاً عن التغيرات التي طرأت على المحتوى والجمالية الموسيقية في إطار عملية التّناص بين الآثار التقليدية والإنتاجات الحديثة.

*** الوسائطية والاشكال المفاهيمي**

عندما نتحدث عن الوسائطية عموما و "الوسائط الموسيقية" خصوصا من منظور اصطلاحي، نواجه عدة

إشكالات في تحديد التعريفات والمفاهيم المرتبطة بهذا المصطلح، إذ تتنوع هذه الوسائط بين المادية والرقمية في سياق الموسيقى والتكنولوجيا والثقافة. وعند محاولة استكشاف الأشكال المفاهيمية للوسائط الموسيقية والنظر في العلاقات البنائية والتفاعلية بينها، يمكننا النظر في عدة مفاهيم رئيسية أولا مثل: –

*** الوسائط– الميديولوجيا(Médiologie)**

يعبر مصطلح "الوسائط" عن اختصاص حديث وضع لبناته الأولى المفكر الفرنسي ريجيس دوبريه Regis Debray منذ سنة ١٩٧٩، و أصدر حوله عدة كتب ومقالات.

تم نشر اغلبها في (دفاتر الميديولوجيا. Cahiers de médiologie) ما بين سنة ١٩٩٦و٢٠٠٤م، ومجلة الوسيط (ميديوم Medium) بداية من سنة ٢٠٠٥.

يتكون مصطلح الميديولوجيا من كلمتين: ميديو (Medio): مشتقة من الكلمة اللاتينية "medium" وتعني "وسيط" أو "وسيلة". وهي تشير إلى. مجموع وسائط نقل الرسائل ونشر المعلومات. أما اللاحقة لوجيا :(Logie)وتعني "علم" أو "دراسة". تقترن بالعديد من المصطلحات لتعني دراسة أو علم اختصاص معين. اعتبر دوبريه الميديولوجيا ورشة نقدية وحقل بحث ووسيط لنقل الثقافة وابلاغها.

وقد عرف "سعيد يقطين" الوسائط بأنها جمع وسيط، وهي تكنولوجيا الكتابة، وحفظ، ومعالجة ونشر المعلومات. والمقصود بالكتابة هنا كل ما لا يكون في المستوى الأول للواقع. فآلة التصوير، على سبيل المثال، تُعتبر كتابة للصورة، حيث أن الصورة ليست الواقع بحد ذاته بل هي واقع ثان نتج عن عملية الكتابة. تُستخدم الوسائط أيضًا للإشارة إلى أدوات أو وسائل التواصل بين الناس مثل الجريدة، والمذياع، والأسطوانة، والكتاب، والتلفاز، والإنترنت. وهناك استعمالات أكثر تخصصًا للوسائط حين تكون متعلقة بالوسائط المتعددة، التفاعلية، أو المترابطة. لذلك وبناء على فكر دوبريه، فهو يعنى بالوسيط الذي بواسطته تتحول الفكرة إلى قوة مادية، وليس بالوسائط في حد ذاتها كما نتحدث عنها عادةً مثل الوسائط المتعددة" (سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص:. . ٢٦٨266).

تجمع الميديولوجيا بين الثقافة والتقنية، حيث تقوم المقاربة الوسائطية على دراسة الثقافة على المستوى الكلي، بما في ذلك الدين والفن والسياسة واللغة. يركز هذا العلم على مختلف الوسائط التقنية والمؤسساتية التي تنقل الثقافة والأفكار والرسائل من فضاء إلى آخر، أي أنه يدرس وسائل الاتصال والإعلام التي تعتمد عليها الثقافة بشكل عام. تركز الميديولوجيا اهتمامها على الوسيط المادي الذي يحمل المضامين، وتنظر في كيفية نقلها وتأثيرها. لذلك اعتبر دوبريه "الاعلام صديقا موهوما للميديولوجا، وهو احد مواضيع بحثها وليس محددا لهويتها(الزبيدي عبد السلام، ٢٠١٩، ٥٣). لذلك، تتجه الميديولوجيا الى دراسة تأثير الوسائط الإعلامية والثقافية في تشكيل ونقل الفنون والمعارف والثقافات، وتبحث في كيفية استخدام وسائل الإعلام والتقنيات الرقمية لنشر رؤى وأفكار معينة أو لتوجيه الرأي العام والتأثير فيه.

يسعى هذا العلم إلى تفكيك العلامات الرمزية والسيميائية في سياقها الزماني والمكاني والفني والجمالي والبصري. وهو ليس علما مستقلا، بل يعتمد على الفلسفة

وعلوم الإعلام ونظريات التواصل. من هنا، فإن المقاربة الميديولوجية هي مقاربة وسائطية تهتم بدراسة الأدب الرقمي دراسة تشريحية متكاملة المستويات، مع التركيز على الوسيط الرقمي في مختلف تجلياته النصية والترابطية والتقنية والتفاعلية والوظيفية والسيميائية. وهذا يتم في ارتباط وثيق بما هو أدبي وفني وجمالي وموضوعاتي وشكلي. (حمداوي جميل، 2018).

هذه التفاعلات بين الوسائط المختلفة، تشكل الفضاءات أو العوالم التي عبر عنها ريجيس دوبريه بمصطلح "الأكوان الوسائطية"، الذي قدمه في كتابه Cours de "médiologie générale"عام ١٩٩١. يشير هذا المفهوم إلى مراحل تطور وسائط نقل المعرفة والثقافة عبر التاريخ، حيث يتم تقسيمها إلى عدة عصور أو أكوان وسائطية.

هذه الأكوان الوسائطية تشمل: –

١- الكون اللغوي :(la logosphère) يعنى بالوسيط الشفوي واللغة المحكية.

٢- الكون الكتابي :(la graphosphère) يتعلق بالوسائط الكتابية والطباعية.

٣- الكون القرصي أو الفيديو :(la vidéosphère) يرتبط بالوسائط السمعية البصرية.

٤- الكون الشبكي أو المتشعب :(l'hypersphère) يمثل عصر الشبكات الرقمية ويشمل الإنترنت والتقنيات المرتبطة بها.

والملاحظ أن هذه الأكوان الوسائطية تماهت مع سياقاتها الزمنية التي ظهرت فيها، حيث خضعت لترتيب كرونولوجي حددته مراحل التطور البشري وما توصل إليه من اكتشافات واختراعات. كانت هذه الوسائط فاعلة في تجسيد الأفكار ونقل المعارف والثقافات. وللتاكيد على أهمية الفكرة و المستويات التفاعلية مع الوسيط الذي تتشكل داخله يقول دوبريه، " إن الأفكار تختبئ في الكتب. افتحوها فتفلت وكأنها جنيات أو حوريات. فهي تتغذى بأفكار أخرى وتولد لها أطفال ونحن نلتهمها لنقوى بها. إنها إحيائية خامدة، منقوصة ولكنها حيوية. (Debray، ١٠٤، ١٩٩٦).

ولكن السؤال المطروح هنا هو: هل ان هذه التقسيمات والتراتبية الزمنية تخبرنا عن استقلالية الأكوان الوسائطية وانغلاقها على نفسها وانتهائها بانتهاء المرحلة؟ أم تؤكد
على ترابطها واستمراريتها عبر الزمن؟

وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال المحوري، يمكن القول ان واقع هذه الأكوان الوسائطية يشير إلى أنها متشابكة ومترابطة وفي حالة تفاعل دائم، سواء في طرق اشتغالها أو في تبادل أدوارها. فكل كون وسائطي يبني على ما سبقه ويؤثر فيما يأتي بعده. على سبيل المثال، الطباعة لم تلغِ الشفوية، بل أضافت بعدًا جديدًا وسبلًا أخرى للنقل الثقافي. ولا الانترنيت ألغت الوسائط المكتوبة والمطبوعة، ولكنها استدعتها إلى فضائها استخدامًا وعرضًا، فعززت سبل اشتغالها، ووسعت نطاق انتشارها وأتاحت أشكالًا جديدة من التفاعل والتواصل. هذه التطورات تشير إلى أن الأكوان الوسائطية تتطور وتتكيف مع السياقات الزمانية والمكانية المختلفة. تتفاعل عناصرها وتتعالق بشكل مترابط، يبني كل منها على أنقاض سلفه، وتتبادل فيه أدوار التواصل، مما يعزز فكرة الترابط والاستمرارية بين الأكوان الوسائطية ومراحلها التاريخية. وهذا ما يحيلنا مباشرة إلى التناص والعلاقات الترابطية التي يقوم عليها.

*** التّناص intertextualité**

التناص هو مصطلح نقدي ظهر في ستّينات القرن العشرين، بين سنتيْ ١٩٦٦ و١٩٦٧ مع النّاقدة "جوليا كريستيفا" Julia Kristevaصاحبة التّنظير المنهجي في النّقد الحديث من خلال ما نشرته من أبحاث. ويعد التناص مقاربة لفهم العلاقة التفاعلية بين النصوص المتناسلة، حيث يعتمد النص الجديد على نصوص سابقة له، مما يخلق شبكة من العلاقات النصية والتفاعلات التي تؤثر على المعاني والتأويلات. وقد استقت جوليا كريستيفا نظريّتها حول التّناص من أعمال أستاذها السّيميائيّ " ميخائيل باختين" وفكرته حول الرّواية متعدّدة الأصوات ومبدأ الحواريّة بين النّصوص والعلاقات بين التعابير. فالنصّ عند كريستيفا (Kristeva , 1969)، فضاء تتقاطع فيه نصوص عديدة، وفي علاقته بنظام إعادة توزيع اللّغة يقوم على (الهدم/ البناء).

فالتّناص يمثل تفاعلا وتحوّلا دلاليا يؤدي إلى تغيير في معاني النصوص. إنه عملية ولادة نص جديد من نص سابق، يدخل في علاقة تفاعلية حوارية وسيميولوجية مع النص الأصلي. بمعنى آخر أنّ كلّ نصّ هو عبارة عن لوحة فسيفسائيّة من الاقتباسات، وكلّ نصّ هو اقتصاص وتحويل لنصوص أخرى" (محمد عزام، ٣٩، ٢٠٠١) . أي أنّ هناك علاقات تأثّر وتأثير وتداخل وتبادل وامتصاص للنّصوص وتحويلها، وكلّها مفاهيم جمعتها جوليا كريستيفا في مصطلح واحدٍ هو التّناص الذي توصّلت إليه عندما كانت تبحث عمّا أسمته " إديولوجيم" أي تبحث عن المتخفّي وراء النّصوص وعن الخلفيّات الفكريّة. وأخذت أهميّة مصطلح التّناص تزداد ضمن الدّراسات النقديّة الحديثة حتّى توسّعت وطالت مختلف المجالات، وتجاوز من خلالها مفهوم التّناص ما هو مكتوب إلى بقيّة الفنون التّعبيريّة كالمسرح والرسم والموسيقى...(برقوقي،٢٢-٢٣، ٢٠٢٠).

*** التفاعل الوسائطي والتناص الموسيقي**

بناءً على المقاربات التي تمت دراستها لتحديد المصطلحات وطرق عملها، يتبين أن مصطلحي "الوسائطية" و"التناص" يمثلان مفاهيم أساسية في الدراسات الثقافية والفنية، ويساهمان في تشكيلها وممارستها ونشرها. تساهم الوسائطية في تعميق مفهوم التناص، حيث يمكن للوسائط المتعددة أن تدمج مجموعة متنوعة من النصوص والمحتويات بطرق مبتكرة ومتنوعة في الإنتاجات الإبداعية والفنية. تشترك في بلورة هذه المفاهيم شبكة تفاعلية متنوعة من النصوص والروابط والوسائط، مثل النص الأدبي، والنص الصوتي، والنص البصري، والنص الموسيقي، والنص الإحالي، والنص التفاعلي، والنص الرقمي، والنص الشبكي، بالإضافة إلى أشكال أخرى. هذا التفاعل المتكامل بين الوسائط يخلق نوعًا من التناص الوسائطي، حيث تتداخل النصوص وتتفاعل بطرق متعددة لإنتاج تجارب غنية ومعقدة تعكس التداخل العميق بين النصوص والوسائط في العصر الرقمي.

فكل عملية إبداعية تتم عبر علاقة تفاعل وتداخل وتبادل وتناسل بين نصوص سابقة ومعاصرة، مما يؤدي إلى توليد دلالات ونصوص جديدة تحمل مزيجا من العناصر المختلفة المتفاعلة والمتغيرة بتغير الوسائط المعتمدة. هذه العملية الإبداعية تعزز فهمنا "للترابط النصي". و"النص المترابط" في فضائه وواقعه الالكتروني الجديد، حيث أنه لا يقتصر على الربط بين النصوص المكتوبة فقط، بل يمكن أن يشمل أيضًا الصورة، والصوت، والحركة سواء كانت منفردة أو متصلة. كلما كان بإمكاننا ربط هذه المكونات

جميعا، كلما تجاوزنا مفهوم النص المترابط نحو الوسائط المترابطة، حيث تترابط كل عقدة بأخرى بطريقة مشابهة لما نجده في أي نص مترابط(سعيد يقطين:266 -٢٦٧).

يشترك كل من مصطلحي "الوسائط" و"التناص" في عدة جوانب تتمحور حول التفاعل والتأثير المتبادل بين النصوص الأدبية والفنية والوسائط الثقافية والتقنية والتفاعلية. يعتمد كلا المصطلحين على استخدام الإشارات والاقتباسات من هذه النصوص والوسائط الأخرى، بهدف بناء أو إثراء المنتجات الثقافية والتقنية، وإبراز كيفية تفاعل الثقافة والفنون وتأثيرهما المتبادل عبر الزمان والمكان. تلعب هذه العناصر دورا حيويا في فهم وتحليل التداخلات الثقافية والفنية والتكنولوجية في المجتمعات المعاصرة.

*** الوسائط الموسيقية**

تشير الوسائط الموسيقية إلى جميع الوسائط والمواد والتقنيات المستخدمة في إنتاج وتخزين وعرض الموسيقى بمختلف أنماطها وألوانها الثقافية. تتنوع هذه الوسائط وتتطور بشكل كبير بتطور المراحل التاريخية، وتشهد عدة تحولات تكنولوجية وثقافية على عجلة التطور المستمر. ومع ذلك، فإن هذه الوسائط ليست في قطيعة مع عالم نشأتها، وإنما هي في ترابط وتواصل مع أطرها وسياقاتها الزمانية والمكانية. يمكن قراءة تطورها بالاستناد إلى دلالات مجالاتها الكبرى التي عبر عنها دوبريه بالعصور الميديولوجية، والتي سميت أيضًا بالأكوان الوسائطية .(Debray,1991) لوصف التطورات التاريخية للوسائط والتقنيات التي تسهم في نقل وتخزين المعرفة والثقافة عبر العصور. وبالاستناد الى ذلك يمكن تقسيم الوسائط الموسيقية وفق المراحل التالية: –

*** العصر الشفوي**

هو عصر الشفاهية، كانت الموسيقى جزءًا من التراث الثقافي الشفوي، تنقل وتتداول شفويا من جيل إلى جيل اعتمادا على الأداء المباشر والذاكرة الجماعية. وقد مثلت الذاكرة الجماعية في ذاك العصر، الوسيط الأمثل لحفظ المادة الموسيقية، وكان الصوت البشري أداة ابلاغ لألوانها الغنائية المتسقة بسياقاتها وبيئتها الثقافية.

*** عصر الكتابة والطباعة**

عصر التدوين والتوثيق الكتابي للموسيقى: في هذا العصر، دوّنت المعارف الموسيقية ووثقت الكتابات حول الموسيقى كتابيا. ساهم ابتكار النوتة الموسيقية كأداة للكتابة في تدوين الأعمال الموسيقية على محامل ورقية، مما جعلها إحدى الوسائط المهمة في تحويل الموسيقى من طابعها الشفوي إلى المكتوب. أدى عصر الكتابة إلى نقل وتعلم الموسيقى بشكل أوسع، ثم تعزز ذلك باختراع الطباعة في القرن الخامس عشر. ساهمت الطباعة بشكل فعال في تقارب الثقافات واكتشاف الموسيقات المتنوعة، من خلال طباعة وتوزيع النوتات الموسيقية ونقل المؤلفات وانتشارها على نطاق أوسع، مما زاد من إمكانية تعلمها وممارستها.

*** العصر السمعي – البصري**

هو عصر الصوت والصورة الذي شهد تطورا هائلا في صناعة الموسيقى بفضل التقدم في الوسائط المعتمدة. بدأت هذه الحقبة باختراع الفونوغراف والأسطوانات في أواخر القرن التاسع عشر، مما أتاح إمكانية تسجيل الصوت والموسيقى وإعادة تشغيلها. هذا الاختراع أدى إلى نشاط كبير في صناعة الموسيقى والتسجيلات الصوتية.

ومع اختراع التلفاز وتطور الوسائل السمعية والبصرية، انتقلت الأعمال الموسيقية إلى أشكال جديدة

تجمع بين المحتوى المرئي والمسموع. هذه الوسائط الحديثة أحدثت تغييرات كبيرة في طرق التسجيل والاتصال والتواصل، ونقل المعلومات والموسيقات ونشرها على نطاق واسع. كان لهذا التحول تأثير عميق على كيفية استهلاك الموسيقى وتوزيعها.

*** العصر الرقمي**

يمكن تعريف العصر الرقمي في علاقة بالموسيقى بأنه الفترة التي شهدت تطورات هائلة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بوجود الإنترنت. في هذا العصر، تم ابتكار وسائط موسيقية متعددة ساهمت في تحويل الموسيقى إلى الصيغة الرقمية. من أبرز هذه الوسائط الحاسوب، الأقراص المدمجة (CDs) والأشرطة الرقمية، وملفات الصوت الرقمية مثل MP3 وWAV، بالإضافة إلى خدمات منصات البث الموسيقي مثل سبوتيفاي Spotify وآبل ميوزيك، Apple Music، ويوتيوب Youtube، والعديد من البرمجيات والتطبيقات الأخرى التي تتصل بالوسائط والأنساق الأدبية والسمعية والبصرية. ساعدت هذه الوسائط في تحسين جودة الصوت وتسهيل عملية النسخ والتوزيع، مما أحدث تغييرًا في طرق الإنتاج والتأليف الموسيقي وسهل التفاعل والتواصل مع الموسيقى عبر الإنترنيت. بفضل وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، مما أثر بشكل كبير على طرق صناعة واستهلاك الموسيقى.

*** الأغنية الشعبية**

الأغنية الشعبية نوع من الأغاني التي تنبع من الثقافة الشعبية والموروثات الشفهية لمجتمع ما، وتمثل نمطا أساسيا من الموسيقى الشعبية، تبنى على اللهجة المحلية للمجتمعات الشعبية، وتتفرع الى عدة أنواع منها ما تعتمد على الصوت البشري الصرف ومنها ما تساوق بالالات الموسيقية الشعبية. تتداول الأغنية الشعبية وتنتشـر بين الشعوب والمجموعات، بواسـطة التقليد وعن طريق المشافهة وتؤثث كل الأطر والمناسبات في دورة الحياة لتلك الفئات الاجتماعية.

تتنوع الأغاني الشعبية بشكل كبير بين المجتمعات والثقافات المختلفة، حيث تعكس تنوع البيئة الاجتماعية والجغرافية." كما لا يمكننا تعريف الأغنية الشعبية كإرث موسيقي ثابت لفئات اجتماعية معينة، ولكن كغيرها من الظواهر الثقافية تسيرّ الأغنية الشـعبية في توافق مع التطورات الاجتماعية والتاريخية والثقافية بما تشهده من حركية ومن متغيرات، وهو ما يفسر تفرّع الأغنيـة الشـعبية إلى أنماط غنائية مختلفة تستجيب مع المعطى البيئي والاجتماعي الذي نتجت عنه الأغنيـة الشعبية البدوية والأغنية الشعبية الحضرية(برقوقي، ١٧٩، ٢٠١٧) .

تواكب الأغنية الشعبية كل المراحل والتطورات التاريخية التي يشهدها هذا المجتمع أو ذاك، فالأغنية الشعبية، جزءًا لا يتجزأ من التراث الثقافي لأي مجتمع، تكشف عن علائقية الفن ببيئته الاجتماعية وتحمل في طياتها ذاكرة جماعية وتجارب حياتية تتناقل عبر الأجيال. ومع تطور الوسائط الموسيقية، وما احدثته من حركية وديناميكية في النظم التقليدية، برزت رهانات جديدة حول كيفية تجديد هذا النوع الموسيقي دون فقدان جوهره الأصيل. تطرح هذه الرهانات عدة تساؤلات حول كيفية استفادة الأغنية الشعبية من التقنيات والوسائط الحديثة للحفاظ على التراث واستمراره ونقله للأجيال الجديدة، وفي الوقت ذاته، تبني عناصر فنية ووظيفية جديدة تجعلها أكثر قربا وملاءمة للعصر الحالي.

*** الأغنية الشعبية التراثية من الشفوية الى الرقمية**

في عصر الأكوان الوسائطية، تطورت الوسائط الموسيقية من النقل الشفوي إلى الوسائط الرقمية التفاعلية. حيث تشهد الأغنية الشعبية تجديدا ملحوظا بفضل تكامل الوسائط المتعددة، التي ساعدت في خلق تجارب فنية جديدة متنوعة، عبر دمج الموسيقى التقليدية مع العناصر البصرية والسمعية الحديثة.

تستمدّ معظم الأغاني التراثية، كأحد أنماط الأغنية الشعبية، من الواقع الاجتماعي والثقافي الذي تعيشه المجتمعات في فترات تاريخية متعدّدة. تأتي هذه الأغاني متلوّنة بألوان الحياة وبيئتها، حيث تصدح الأصوات أحيانًا بنغمات معبّرة عن قصص الحب والغرام عبر ترانيم الفرح والانتشاء، وفي أحيان أخرى بنبرات الحزن والشجن، معلنةً لواعج النفس وهمومها.

لقد ظل الصوت البشري الأداة والوسيلة الأمثل لتبليغ محمولات وخطابات الأغنية التراثية، دون مرافقة الآلات الموسيقية في أغلب أنماطها. وإن وجدت في بعض أمثلتها، تكون إحدى الآلات الشعبيّة مثل: آلة القصبة، الطبل، الدربوكة، أو البندير. من الخصائص الصوتية المعروفة في أداء هذه الأنماط الغنائية، قوة الصوت وعذوبته، وقدرته على شد المستمع إلى نصوص الأغاني واستيعاب عباراتها ومعانيها. تساهم هذه الخصائص الصوتية في جعل الأغاني التراثية وسيلة فعالة للحفاظ على التراث الثقافي ونقله عبر الأجيال. فهي لا تعبر فقط عن التجارب الشخصية والجماعية، بل تشكل أيضا جزءا من الهوية الثقافية للمجتمعات التي تنتمي إليها، مما يعزز من قيمتها وأهميتها في النسيج الثقافي والاجتماعي. إلا أن هذه الألوان الغنائيّة بطابعها التقليدي لم تعد قادرة اليوم على مواكبة روح العصر والانسجام مع المحيط السمعي والذائقة الفنيّة، من دون تطويعها وإدخال بعض التحويرات والاضافات على عناصرها الفنيّة وبناها اللحنية الايقاعيّة الاصليّة، هذا التطويع يجعلها أغنية متجدّدة قابلة للتداول اكثر في السياقات الجديدة قريبة من الناشئة ومن الإنتاجات الفنيّة والموسيقية الحديثة. فلا يمكن للتراث أن يكون منفصلا عن الواقع الحي بل هو عنصر متحول ومتغير فهو ليس بمثابة عقائد نظرية ثابتة وحقائق دائمة...،(حنفي،١٩٢ ،٢٠٠٢). مع ذلك، فإن التعامل مع هذه الأنماط الغنائية يجب أن يكون دقيقا ومدروسا، حتى لا تفقد الأثر السمات الأساسية والخصائص الموسيقية الموروثة، التي تحدد المرجعية والهوية الثقافية. يجب أن يتم هذا التطوير بطريقة تحفظ القيم الفنية الأصيلة وتدمجها بروح العصر، مما يتيح للأغاني الشعبيّة التراثية أن تحتفظ بأصالتها وفي الوقت نفسه تتفاعل مع المستجدات الموسيقية والفنية.

وقد نجح العديد من الفنانين في شد المتلقّي و خلق تفاعلا إيجابيا كبيرا مع منتجاتهم المستلهمة من الاغنية التراثية، بما قدموه من قراءات فنية، أعادت عبق الماضي في اشكال فنية ورؤى جديدة تنسجم موسيقاها وسرعة ايقاعاتها وصورها ورونقها مع روح العصر.

وسنحاول هنا تكشّف ملامح التجديد الموسيقي للأغنية الشعبيّة من خلال الأغنية المصورة وظاهرة الفيديو كليب، التي تعد من الأشكال الفنية الحديثة الأكثر رواجًا في السنوات الأخيرة. بعد أن كانت الأغنية التقليدية ترتكز على الكلمة والصوت، انتقلت بها التقنيات الحديثة إلى السياقات السمعية البصرية الجديدة ودخلت بها عالم المشهد والفرجة. في هذا الفضاء، تلتقي الكلمة بالموسيقى وتستقطب الصورة والحركة والشخصيات والبهرجة

الضوئية كعناصر أساسية في تشكّل الفيديو كليب وانتشاره عبر الوسائط التواصلية على الفضائيات والمنصات الإلكترونية. ولمزيد فهم تطورات الأغنية الشعبية في ضوء الوسائط الموسيقية الحديثة، سنعرض نموذج للاغنية التراثية، "ناقوز تكلم" نتبين من خلالها فعل التناص فيها والعلاقة التفاعلية مع الوسائط المختلفة.

وقد اعتمدنا في تحليلنا للامثلة جملة من العناصر تناولنا فيها: نمط الاغنية وموضوعها، العناصر الفنية للاغنية، البناء الشعري، البناء الموسيقي، اللحن، الإيقاع، الأداء، التوزيع الموسيقي، التحليل الصوتي باعتماد التكنولوجيات الحديثة.

وللتحليل الصوتي للمثال اعتمدنا على برمجية البرات Praat: بالاستناد الى اربع عناصر أساسية وهي: – ١– الطبقة (Pitch): وهي تشير إلى الدرجة الموسيقية أو التردد الذي يحدد مدى ارتفاع أو انخفاض الصوت. يتم تحديدها بوحدات (Hz)

٢– شدة الصوت –الكثافة الصوتية (Intensity) : تشير إلى حجم الصوت أو مستوى الصوت، وتعبّر عن قوة الموجة الصوتية ومدى ارتفاعها. تقاس الكثافة الصوتية بالديسيبل (dB)وتحدد مدى قوة الصوت، سواء كان عاليا أو منخفضا. في الموسيقى، تؤثر الكثافة الصوتية على الديناميكية والتعبير العاطفي للمقطوعة الموسيقية.

٣– ذروة الطيف الترددي للصوت، (Formants) : وهي تشير إلى قمم التردد للصوت، والتي تحدد الخصائص الصوتية والنوعية للصوت. تشكل ما يميز الصوت البشري عن الآلات الموسيقية الأخرى .وتساعد في تمييز الأصوات المختلفة.

النبضات(Pulses) : تشير النبضات إلى الوحدة الأساسية للإيقاع التي تشكل الأساس الزمني لقطعة موسيقية. تعبر عن التكرار المنتظم للإيقاع الذي يقسم الزمن الموسيقي إلى أجزاء متساوية. يتم استخدام النبضات لتحديد سرعة القطعة الموسيقية والتنظيم الإيقاعي. وتساعد النبضات الموسيقيين في البقاء متزامنين أثناء الاداء الجماعي.

جدول رقم (1) عينة من الاغنية التراثية "ناقوز تكلم" بصيغتها التقليدية والنص المتناص عنها

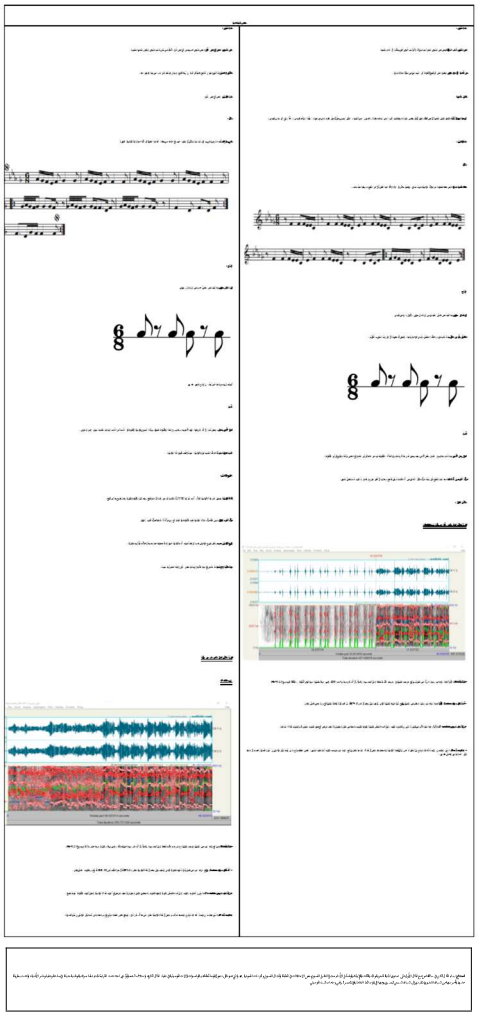

إنّ التطورات الحديثة في المجال التكنولوجي والرقمي ووسائل الاتصال المتعددة، كانت لها انعكاساتها و تأثيراتها المباشرة على صناعة الأغنية وإعادة إنتاجها بشكل جديد يتلاءم مع متطلبات العصر ويستجيب للذائقة الفنية التي فرضتها المجتمعات الراهنة على الإنتاج الموسيقي والحركية الفنية. وهو ما يفسر هذا الزخم من الأنماط والألوان الموسيقية المتعددة، حيث مثّلت الأغنية الشعبية التراثية إحدى الوجهات الإبداعية المهمّة في القراءات الفنية الجديدة. إن الأدب والفن لا يقتصران على شكل واحد أو أشكال محددة، بل يتميزان بطبيعتهما الثورية والتجديدية وكسر السائد، فحتى الجدران استخدمها الفنانون لخدمة فنهم بتمظهر "فن الجداريات/ ادب الجدران"، وهكذا يلجأ الفنان إلى استخدام كل ما هو متاح للتعبير عن نفسه وعن آمال وآلام الإنسان، "(مريم ضربان ،.2020،13).

شهدت السنوات الأخيرة نقلة نوعية في اعتماد التقنيات الحديثة لمعالجة المادة الموسيقية وجميع الفنون المتقاطعة معها، مما ساهم في إحداث تغيّرات جذرية في التأليف الموسيقي وتجديد الأغنية التراثية. وقد نتج هذا التجديد عن تصورات فنية ساهمت في رسمها مجموعة من المتداخلات المشكّلة للسياقات الحديثة، استجابةً لمستجدات المحيط السمعي والذائقة الفنية المعاصرة. هذه الحركة التجديدية طالت كل عناصر الأغنية، سواء الأدبية منها أو الفنية، من خلال التحوير والحذف والإضافة والإثراء، بما يتناغم مع متطلبات العصر الحديث. إن هذه التحولات لم تقتصر على تحسين جودة الإنتاج الموسيقي فحسب، بل شملت أيضاً استخدام تقنيات رقمية متطورة مثل الذكاء الاصطناعي وبرامج معالجة الصوت المتقدمة، مما أتاح للفنانين إمكانيات جديدة للإبداع والتعبير.

كانت الأغنية الشعبية، كغيرها من الفنون القولية الشعبية، تعتمد على الوسائط الشفاهية للتناقل والتداول داخل المجتمعات. ثم انتقلت إلى المرحلة الكتابية من خلال التوثيق والتدوين بمختلف أشكاله عبر جملة من البحوث والدراسات التي سجلت مضامينها الأدبية والفنية باستخدام الوسائل والأدوات التقنية الحديثة. وأصبحت الأغنية الشعبية الآن في علاقة وثيقة بالوسائط الرقمية المتعددة، بما تتطلبه من أصوات حية وأشكال وألوان ورموز وصور ثابتة ومتحركة وموسيقى، مما توفره الحواسيب والمنصات الإلكترونية والهواتف الذكية المتصلة بشبكة الإنترنت. هذا التطور أتاح للأغنية التراثية كاحد أنماط الأغنية الشعبية

الوصول إلى الجيل الجديد وقربها منه، مما جعلها مرجعا ومنطلقا لقراءاتهم الفنية الحديثة

هذا الانتقال من الشفاهية إلى الكتابية شكّل نقطة تحول هامة في حفظ التراث الموسيقي وتوثيقه، حيث أصبح من الممكن الحفاظ على النصوص والألحان ونقلها بدقة عبر الأجيال. إن استخدام الوسائل التقنية والوسائط الحديثة في التوثيق، مثل التسجيلات الصوتية والمرئية، أسهم في حفظ الأداء الأصلي للفنانين، مما يضيف بعدا جديدا لدراسة التراث الموسيقي. يعد التوثيق بمختلف أنواعه مرجعا هاما للباحثين والموسيقيين في المستقبل، ويمكن أن يساهم في إعادة هذه الأغاني بقراءات متعددة.

شهدت الأغنية الشعبية التراثية تطورات هائلة، بدءًا من تناقلها عبر الأجيال بوسائل شفاهية، ثم تدوينها وتوثيقها بوسائل كتابية، وصولاً إلى عصر الرقمية حيث أُعيد تقديمها بوسائط متعددة تتيح تفاعلًا أوسع وأعمق مع الجمهور .

هذا التفاعل والحركية الفنية التي طالت الموروث الغنائي أثارت جدلا حول التراث الغنائي وإشكالية تارجحه بين الأصالة والتجديد. بينما يرى البعض أن إدخال التقنيات الحديثة والتحويرات الجديدة يعزز من حيوية الأغنية التراثية ويجعلها أكثر ملاءمة للعصر الحديث، يخشى آخرون من أن يفقد التراث جوهره وسماته الأصيلة في خضم هذا التحول. فالتحول الذي شهدته الأغنية في ظل الوسائط المتعددة لم يكن مجرد تغيير في الوسيلة، بل كان تحولا شاملا في طريقة تأليف وتنفيذ واستقبال الأغاني. لقد ساهمت الوسائط الرقمية في إحياء التراث الموسيقي بطرق مبتكرة، مما جعلها أكثر جاذبية للأجيال الجديدة، وفي الوقت نفسه أثارت تساؤلات حول كيفية الحفاظ على الأصالة وسط هذا التجديد المستمر.

هذه التحولات الرقمية دفعت إلى التفكير في إعادة النظر في سبل التعامل مع التراث الموسيقي وطرق تقديمه، لتحقيق توازن بين الحفاظ على قيمه وتجديده ليظل حيا ومتألقا في عالم متغير.

*** المراجع**

اولاً– المراجع العربية

الزواري(الاسعد)، الورقة العلمية، المؤتمر الدولي، الوسائط الفنيّة والخطاب الموسيقي:نحو تحديد العلاقة بين الأبعاد التقنية والرمزيّة والفنّية والجماليّة، أكتوبر٨ – ١٠، صفاقس 2024، الجمهورية التونسية.

سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، مدخل الى جماليات الابداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، المغرب ٢٠٠٥ ص. ٢٦٦. ٢٦٨.

الزبيدي عبد السلام، الميديولوجا لدى ريجيس دوبريه فلسفة الانسان المبلغ، الدار المتوسطية للنشر، ٢٠١٩.ص٥٣.

ريجيس دوبريه، "مدخل إلى ميديولوجيا: نحو نظرية للتواصل"، غاليمار ،.(Gallimard) ١٩٩١. ص ٣٢.

جميل حمداوي "المقاربة الوسائطية" (L’approche médiologique)، المجلة الالكترونية، العدد ٧٩. ٢٠١٨. https://adabislami.org/magazine/2018/03/3346/197

ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الإعلام العام؛ الميديولوجيا، ت: فؤاد شاهين وجورجيت

الحداد، م: فريدريك معتوق، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٩٦،ص١٠٤ص

برقوقي الزازية، في دروب التّناص "ما زلت نا هونا "... خطاب الأنا من الكلمة إلى الأداء: قراءة في التناصّ الشّعريّ والتناصّ الموسيقيّ، ط١، BHF، صفاقس، تونس، ٢٠٢٠. ص ٢٢ – ٢٣.

برقوقي (الزازية) ، الثقافة الشعبيّة والثقافة العالمة بين المعنى والمصطلح، مقاربة اثنوموسيقولوجية حول الأغنية الشعبيّة، مجلة الثقافة الشعبيّة العدد ٣٩، خريف ٢٠١٧. ص ١٧٩.

حسين، (حنفي)، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، ط.١، لبنان المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ص ١٩٢.

مريم ضربان، أدب " التغريدة " ورهانات الاستطيقا الرقمية في الفضاء الافتراضي بين "عولمة العرض" والموت الرمزي " للعبق الفني، مجلة الاداب والعلوم الاجتماعية، المجلد ١٧، العدد٣، جامعة سطيف، ٢٠٢٠.ص ١٣.

ثانياً– المراجع الاجنبية

Régis Debray, Le pouvoir intellectuel en France, Ramsay, 1979.

Médiologie - (Wikipédia, l'encyclopédie libre

Kristeva (Julia), Sèmeiotikè, Recherches pour une sémanalyse, Ed, Seuil, 1969.

https://fr.scribd.com/document/350510280/Julia-Kristeva-Semeiotike

Régis Debray, Cours de médiologie générale. Bibliothèque des Idées, 1991, 395p